البلاد بين فترتي حكم الإمام فيصل بن تركي

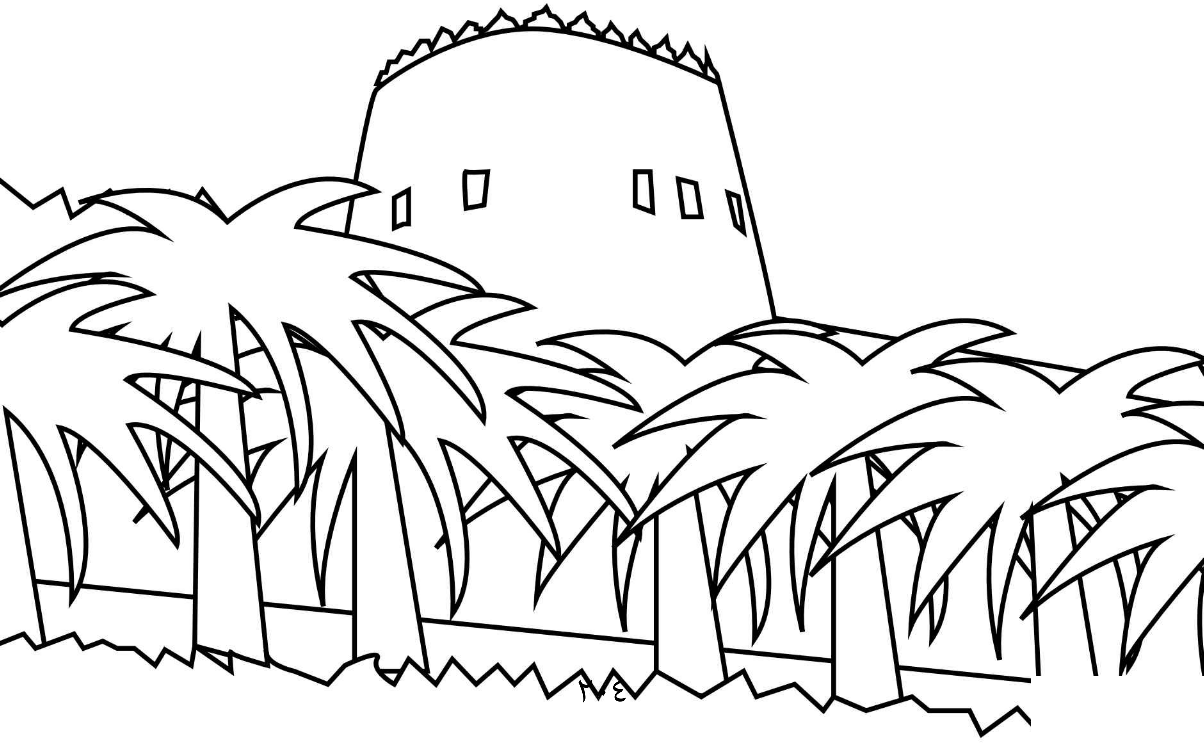

بعد استسلام الإمام فيصل بن تركي لخورشيد باشا بدأ هذا القائد يخطط للاستيلاء على منطقة الأحساء المهُمَّة، ثم التوغل منها في بقية جهات الخليج. فأرسل إلى عمر بن عُفَيصان، أمير تلك المنطقة من قِبَل الإمام فيصل؛ عارضًا عليه الأمان مقابل دخوله في طاعته[1].

وإدراكًا من عمر لقوة خورشيد ترك الأحساء: إما لعدم ثقته بذلك القائد وبما عرضه عليه من أمان، وإما لعدم رغبته في الدخول تحت نفوذه. وبتركه الأحساء دخلت تلك المنطقة تحت حكم خورشيد. فَعيَّن أحمد السديري أميرًا لها. وعَيَّن عيسى بن علي، الذي سبق أن تَولَّى إمارة جبل شَمَّر، أمينًا لبيت المال فيها[2]. وتَمكَّن بعد ذلك من إدخال القطيف تحت نفوذه[3]. وبذلك خضعت المنطقة الشرقية كلها له.

وكان من نتائج استيلاء خورشيد على المنطقة الشرقية أن بدأ نشاطه في بقية جهات الخليج وعمان؛ مُتّخذًا من تبعية تلك الجهات لآل سعود بطريقة من الطرق وسيلة لمحاولة إدخالها تحت الحكم المصري. ويبدو أن الظروف التي كان يَمرُّ بها حاكم البحرين حينذاك قد هَيَّأته لإبرام اتِّفاق مع خورشيد، بحيث أصبح وضع ذلك الحاكم معه مشابهًا لوضع أسلافه من آل خليفة مع القادة السعوديين الأقوياء[4]. وقد نجح خورشيد، أيضًا، في مَدِّ نفوذه على الجهات التي كانت خاضعة لآل سعود في نواحي عمان. وقام بجهود لإجبار سلطان مسقط بأن

(١) ابن بشر، ج٢، ص١٠٨.

(٢) على أن عيسى لم ينعم بذلك المنصب طويلاً؛ إذ توفي آخر سنة ١٢٥٥هـ. انظر المصدر نفسه، ج٢، ص١١ و١١٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٠.

(٤) انظر تفصيل ذلك لدى واينـدر، ص١٢٥ - ١٢٨؛ عبدالرحيم، **محمد علي**، ص٣٢٢ - ٣٤٣ نخلة، ص٧٧ - ٩٣.

يكون وضعه تجاهه مثل وضعه مع أولئك القادة السعوديين[١]. وأقام علاقات طيبة مع حاكم الكويت[٢]. ثم بدأ يُخطِّط لغزو العراق[٣].

ومن الواضح أن النجاح الذي حَقَّقه محمد علي عن طريق قائده في الجزيرة العربية؛ إضافة إلى ما حَقَّقه من نجاح في مناطق أخرى، قد أثار مخاوف بريطانيا بدرجة كبيرة. وإذا كانت هذه الدولة قد رأت في الدولة السعودية الأولى مصدر خطر على نفوذها في الخليج، وأبدت سرورها بقضاء حاكم مصر عليها، فإنها قد أدركت أن هذا الحاكم قد أصبح أَشدَّ خطرًا عليها من آل سعود، بعد أن وصلت دولته إلى ما وصلت إليه من اتِّساع، وبلغ جيشه ما بلغه من تنظيم وتدريب وقوة. ولذلك بدأت تعمل على تحطيم قُوَّته التي باتت تُهدِّد مصالحها في المنطقة كلها. وقد لاحت الفرصة الذهبية أمامها حينما انتصرت قواته على قوات الدولة العثمانية، وزحفت نحو عاصمتها مما جعل ذلك الصراع يَتحوَّل إلى أزمة دولية. وتَزعَّمت بريطانيا بعض القوى العالمية حينذاك، فأرغمت محمد علي، بموجب معاهدة لندن سنة ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م)، على سحب قواته من بلاد الشام والجزيرة العربية. وبذلك لم تطل إقامة خورشيد في شرقي الجزيرة ونجد؛ بل انسحب إلى الحجاز، فمصر، تاركًا حاميات صغيرة مع خالد بن سعود[٤].

وكان لانسحاب خورشيد بقواته أثر كبير على موقف خالد بن سعود. ذلك أن الجهات النائية نوعًا ما عن الرياض بدأت تَتصرَّف تَصرُّف المستقل. ولم يستمر خالد في الحكم بعد ذلك الانسحاب أكثر من عام واحد، حدثت خلاله عدة مشكلات، من أبرزها المشكلة التي قامت بين زعيم جبل شَمَّر، عبدالله بن رشيد،

---

(١) عبدالرحيم، **محمد علي**، ص٣٥٤ – ٣٥٦، وايندر، ص١٢٩ – ١٣١، نخلة، ص٩٤ – ٩٧.

(٢) عبدالرحيم، **محمد علي**، ص٣٧٤ – ٣٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٧٦ – ٣٨٩.

(٤) ابن بشر، ج٢، ص١١٣ – ١١٤، عبدالرحيم، **محمد علي**، ص٣٨٨.

وزعماء القصيم؛ وبخاصة أمير بُرَيدة عبدالعزيز بن محمد آل عُليَّان. وقد تَطوَّرت هذه المشكلة إلى حدوث معركة بين الطرفين في بقعاء سنة ١٢٥٧هـ. وانتصر في تلك المعركة زعيم الجبل وقومه من شَمَّر انتصارًا عظيمًا على أهل القصيم وحلفائهم من عنزة. فثبت مركزه في منطقته وما حولها أكثر من ذي قبل[١].

على أن المشكلة الحقيقية الكبرى بالنسبة لخالد بن سعود في تلك الفترة كانت ثورة عبدالله ابن ثُنيَّان آل سعود ضده[٢]. كان عبدالله يختلف مع خالد في نظرته تجاه الحكم المصري. وقد اتضح موقفه المعادي لمحمد علي وأعوانه قبل انسحاب خورشيد من نجد. وربما كان ذلك هو السبب الأساس لعدم اطمئنان خالد إليه، وإلحاحه على أن يصحبه إلى القصيم لوداع القائد المذكور حين مغادرته تلك المنطقة. لكن عبدالله استطاع فيما بعد أن يهرب من الرياض إلى قبيلة المنتفق. ثم عاد من تلك القبيلة إلى نجد بعد فترة قصيرة، واتجه إلى بلدة الحائر. وبدأ نشاطه من هناك، فاتصل بسكان المنطقة الجنوبية من نجد الذين اشتهروا بمقاومتهم للنفوذ الخارجي في البلاد. واتفق معهم على العمل للإطاحة بخالد بن سعود الممثِّل لذلك النفوذ. وقد حاول خالد أن يستنهض همم النجديين للوقوف معه ضد ابن ثُنيَّان ومن انضم إليه. لكن محاولته باءت بالفشل. فأدرك أن الموقف في صالح خصمه. وقرر أن يبتعد عن نجد ويذهب إلى الأحساء، لعلَّه يجد فيها من يقف معه. أما ابن ثُنيَّان فاستولى على ضرما، وزحف بأتباعه صوب الرياض. واستطاع أن يستولي على البلدان القريبة منها. ثم بدأ يهاجمها

---

(١) من علامات خطورة هذه المعركة أن ابن بشر (ج٢، ص١١٧ - ١١٨) سمَّاها «الواقعة العظمى والحادثة الكبرى». وانظر عن ظروفها وملابساتها ونتائجها عبدالله العثيمين، **نشأة إمارة آل رشيد**، ص٢٣١ - ٢٤٣.

(٢) عبدالله بن ثُنيَّان هو عبدالله بن ثُنيَّان بن إبراهيم بن ثُنيَّان بن سعود بن محمد بن مقرن. انظر: **مثير الوجد في أنساب ملوك نجد**، لراشد بن علي الحنبلي، تحقيق عبدالواحد راغب، دارة الملك عبدالعزيز، ١٣٩٩هـ، ص٥٠.

حتى تمكن من دخولها وإجبار الحامية العسكرية الموجود فيها على مغادرتها. وما إن تمَّ له ذلك حتى قدمت إليه وفود من بلدان نجدية متعددة معلنة ولاءها. وعاد إلى العاصمة من سبق أن تركوها في ظل الحكم المصري[(١)].

وحينما علم خالد بن سعود باستيلاء عبدالله بن ثُنيَّان على الرياض حاول أن يجهِّز جيشًا من الأحساء ليزحف به على نجد. لكن الشعور بالضعف كان قد أخذ منه مأخذه، فأقلع عن محاولته، وغادر تلك المنطقة إلى الكويت. ومن هناك توجه إلى القصيم، ثم إلى مكة المكرمة[(٢)].

ولما وصلت الأخبار إلى عبدالله بن ثُنيَّان بهروب خالد بن سعود من الأحساء بعث طليعة من أتباعه لتستولي على قصر الحكم فيها. ثم بعث إليها عمر بن عُفَيْصان أميرًا. وعيَّن بعد ذلك أحمد بن محمد السديري أميرًا على القطيف. وهكذا أصبح نفوذه يشمل المنطقة الشرقية ونجدًا باستثناء منطقتي القصيم وجبل شمَّر اللتين يبدو أنهما كانتا تتمتعان بالاستقلال[(٣)].

ولقد حاول عبدالله بن ثُنيَّان أن يبسط نفوذه على الجهات التي سبق أن خضعت لآل سعود في نواحي عمان[(٤)]. لكن عهده لم يطل لكي يَتضَّح أنه قادر أو غير قادر على تحقيق ما حَقَّقه أسلافه من نجاح؛ وبخاصة أن النفوذ البريطاني قد ازداد في تلك الجهات بعد انسحاب قوات محمد علي من الجزيرة العربية.

ومع أن عبدالله بن ثُنيَّان كان صلبًا في آرائه تجاه أَيِّ نفوذ خارجي على بلاده، فإنه أبدى رغبة ملحة في إقامة علاقات طيبة مع حكومة الحجاز وشريف

---

(١) ابن بشر، ج٢، ص١١٩ - ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٤.

(٣) ومن أدلة ذلك أن أمير بريدة عند قدوم فيصل من مصر إلى جبل شمَّر سنة ١٢٥٩هـ اتصل بابن ثنيَّان واعدًا إياه بأن يبايعه ويقف معه إن هو اتجه إليه.

(٤) وايندر، ص١٤١.

مكة محمد بن عون. ومن أَدلَّة ذلك أنه بعث إلى مُمثِّل تلك الحكومة وإلى الشريف مبديًا حسن نواياه تجاههما[1].

ولقد شهد شهر رمضان من سنة ١٢٥٨هـ نزول أمطار غزيرة جدًّا على نجد، وانتهت بذلك سنوات قحط مريرة توالت على البلاد منذ اغتيال الإمام تركي بن عبدالله[2]. ولم يكن ذلك عائدًا بالفائدة على عامة السكان فقط، وإنما كان مفيدًا غاية الفائدة لعبدالله بن ثُنيَّان. ذلك أن ازدهار الثروة الحيوانية والزراعية كان سيزيد دخله من الزكوات. لكن ذلك الحاكم لم ينعم بما كان مؤملاً؛ إذ حدث في مستهل السنة التالية ما كَدَّر صفوه، ومَهَّد السبيل لإنهاء حكمه.

فقد تَمكَّن فيصل بن تركي- بتدبير من حفيد محمد علي، عباس باشا- من مغادرة مصر بَرًّا والوصول إلى جبل شَمَّر[3]. ومن هناك بدأ خطواته التي أَدَّت إلى القضاء على حكم ابن ثُنيَّان، واستعادته للحكم، كما سيأتي مفصلاً.

*****

---

(١) ابن بشر، ج٢، ص١٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٦ - ١٢٧.

(٣) اختلفت الروايات في مسألة خروج فيصل من مصر. فابن بشر (ج٢، ص١٢٩) يذكر أنه نزل من حبسه بحبال عبر فرجة تبعد عن الأرض أكثر من سبعين ذراعًا، حيث استقل ركائب سبق أن واعد أصحابها إلى جبل شَمَّر. لكنه قال في موضع آخر من كتابه (ج٢، ص١٠٧): إن فيصلًا كان في بيت، وكان كثير من المصريين يأتون إليه ليقرأ على مرضاهم. أما دحلان فيقول (ج٢، ص٣١٢ - ٣١٣): إن خروج فيصل كان بتدبير من عباس باشا بعد أن وعده بأن يكون مواليًا لحكومة مصر. ولعل فيصلاً كان في بيت تحت الحراسة. وخرج من مصر بتدبير عباس باشا. وكان معه حين خرج من هناك أخوه جلوي وابنه عبدالله وابن عمه عبدالله بن إبراهيم، انظر ابن بشر، ج٢، ص١٢٩. ومن الواضح أن مصر لن تخسر شيئًا في عودة فيصل إلى نجد، لأنها لن تمده برجال أو سلاح. فإن نجح في مسعاه فإنه سوف يقضي على ابن ثنيَّان الذي كان قاسيًا في معاملته لمن بقي من الجنود المصريين. وإن خسر الجولة مع خصمه، فلن يضيرها ذلك شيئًا.